البائس شفيق حبار

اسم الكتاب:	البائس شفيق حبار
اسم الكاتب:	إيهاب عبدالوهاب العرشي
تصميم الغلاف:	فريق شغف
الإخراج الفنيّ:	جمال عبدالرحيم
الطبعة:	الأولى
رقم الإيداع:	25378 / 2022
الترقيم الدولي:	978-977-6939-11-0

Gmail	almaktaba79@gmail.com
facebook	Facebook.com/arabiclibrary2017
	01030365801 - 01014977934

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

البائـــــس
شفيق حبـّار

ايهاب عبدالوهاب العرشي

للنشر والتوزيع
Arabic Library

تنويه هام:

جميع الأحداث والكتابات من خيال المؤلف، ولا علاقة لها بأحداث المسلسل الكرتوني الشهير (سبونج بوب سكوير بانتس)؛ فقط تم تجسيد شخصيات الكرتون، وجعل شفيق حبار بطل الرواية، بالإضافة إلى محاولة تحليل شخصيته البائسة وتقديم الحلول لها..

الشخصيات في الرواية:

1. بطولة البائس شفيق حبار: يعمل عامل خزينة لدى مقرمشات سلطع.
2. سبونج بوب: المسوّق العام لمقرمشات سلطع..
3. بسيط نجم البحر: موظف لدى مقرمشات سلطع، والصديق الحميم لسبونج.
4. مستر سلطع: مؤسس سلسلة مطاعم سلطع برجر الشهيرة.
5. المظلوم شمشون: من العوالق البحرية، ومتّهم ظلمًا بمحاولة سرقة سلطع برجر!
6. زينوبة: صديقة شفيق حبّار التي حاول إخفاءها.

لا تتنازل عن حقّك في الصمت، في التأمل، في القراءة، في التفكير، في الجنون، في ارتكاب الأخطاء، في العزلة والخيال أو حتى في الرحيل!

شفيق حبار

ماهي الحياة يا شفيق؟!

شفيق حبّار يُجيب قائلًا:

– إنها الجحيم.. الآخرون هم الجحيم.. الحياة تساوي الجحيم.. إنها الألم، إنها المعاناةٍ.. من يبحث عن السعادة في الحياة هو مثل الطفل الذي يبحث عن الحلوى، رغم إنها تضرّ معدته، لكنه يستمتع بمذاقها الجميل والرائع.. كذلك من يبحث عن السعادةٍ في الحياة هو شخص يضرّ حياته ويقتلها..

إن الأشياء الجميلة في الحياة لا تكون مفيدة.. إنّ حياتنا مليئة بالقُبح والمآسي والآلام..

أرجوك لا تسألني عن معنى الحياة، واسأل (نجم البحر)، وسُيجيب عنك..

ماذا سيقول لك (بسيط نجم البحر) لو سألته هذا السؤال؟

– سيُجيب قائلًا: الحياة تعني المغامرة، تعني المتعة، تعني اللذة، الضحك، والأكل، والنوم الكثير..

ولو سألت سبونج إسفنجة البحر مثلًا عن معنى الحياة؛ سيقول: الحياة تعني الصداقة، والتفاؤل، والعمل، والابتسامة، والمرح في كلّ الأوقات.. لستُ أعلم عن أيّ صداقةٍ يتحدث في عالمٍ مليءٍ بالأكاذيب، ولستُ أعلم من أين يأتي بالمرح في عالمٍ مليءٍ بالأحزان!

– أو اسأل السيّد (سلطع)، هو مدير مطعمنا، ونحن مجرّد عمّال لديه؛ لا شكّ أنه يعلم أفضل منّا..

ثمّ يضيف شفيق حبّار قائلًا:

– من يمتلك النقود يمتلك معرفة كلّ شيء!

شفيق مواصلًا حديثه:

– اسأل (سرطان البحر سلطع) مع أنك تعلم علم اليقين إجابته مسبقًا.. أتعلم ماذا تعني الحياة لمستر سلطع؟! إنها تعني المال، وتساوي النقود، تعني العقود والاستثمار والادخار، إنها القوّة بنظره..

– أما أنا؛ فأختلف عن هؤلاء تمامًا.. أخطبوط مثلي يعتقد أن الإفراط في السعادة فخٌ حقيقي لما هو أسوأ.. أخطبوط مثلي اعتاد على الألم طيلة حياته حتى ظنّ أن اليوم الذي يكون فيه سعيدًا هو يومٌ خالٍ من الحياة ولا يستحق العيش.

ثم يضيف قائلًا:

– في العديد من المرّات كنتُ أختار الصمت للتعبير عواطفي ومشاعري؛ بل وحتى أفكاري. ظننتُ أنّ الصمت يغني عن الكلام، ولكن لا أحد يمتلك رفاهية التفكير ليفهم ماذا يعني صمتي.. كان الصمت بنظرهم مجرّد ضعف وخزي وعار.. كنتُ أظن أن الجميع

يفهم لغة الإشارات، لغة الصمت، لغة الهمس، لغة التخاطر عن بعُدٍ دون حاجة للكلام، ولكن لا جدوى..

– يا شفيق حبّار؛ يراك البعض كئيبًا مفرطًا في العزلة والكآبة! يراك البعض أنانيًا مفرطًا في الأنانية، ولا تحبّ مشاركة الآخرين حياتك..

شفيق:

– أنا لستُ كئيبًا، أنا أعمل الأشياء بعمق.. عندما أتألم؛ أتألم بعمق، وعندما أسعد؛ أسعد بعمق.. أستمدّ سعادتي من أشيائي الذاتية الداخلية، من العزف، من القراءة، الرسم، الرقص الكلاسيكي..

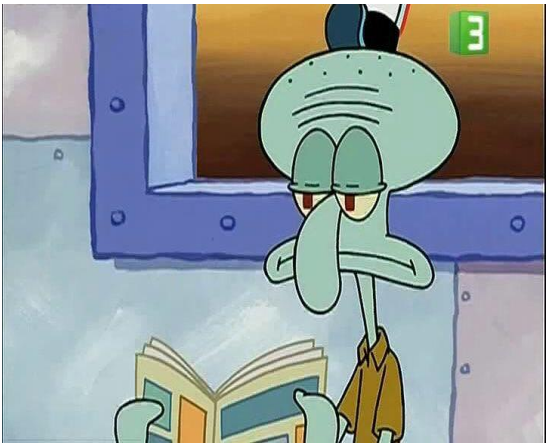

– أنا فنان.. فنان عالمي.. أمتلك ذوقًا رفيعًا للغاية..

أما هؤلاء الحمقى (ويقصد بذلك سبونج بوب وبسيط)؛ فإنهم يستمدون سعادتهم من إيذائي، لا يتركونني وشأني، يستمدون سعادتهم من مغامراتهم الفارغة، وقصصهم المكررة.. يتعمّدون بشكلٍ دائمٍ إيذائي، ثم يخترعون المشاكل، ومن ثمّ يبحثون عن حلولها..

وعلى الرغم من ذلك؛ أنا لا أكرهم.. لا أكره (سبونج) ولا (بسيط) كما يخيّل إليكم، إنهم أصدقائي، وأحبهم، وأشاركهم بعض الحماقات، وأطعمهم ألذّ الطعام والمقرمشات، ولكن أكره فضولهم وحشر أنوفهم في حياتي، فأنا شخصٌ يعشق الخلوة، يعشق الهدوء، يعشق التأمل، يعشق الصمت.. أقولها دائمًا وأبدًا:

الإنسان الراقي لا يحشر نفسه في شؤون الآخرين، كما أنه في المقابل لا يحب أن يتدخل الآخرون في شؤونه..

ويختم شفيق حبّار حديثه قائلًا:

– السعادة والألم وجهان لعملة واحدة.. لستُ مكتئبًا، ولا حزينًا، سعادتي بالهدوء هي شقاء لكم، وسعادتكم بالثرثرة هي شقاء لي.. القناعة سعادة لمن أحلامهم متواضعة مثلكم، بينما هي شقاء لمن سقف طموحاتهم عالٍ مثلي.. هناك من يكونُ سعيدًا بحياةٍ كلّها أكل وشرب وثرثرة، وهناك من يشقى لو عاشَ تلك الحياة.. هناك من

يكون منتشيًا بقراءة كتاب، بينما آخرٌ يكون بقمّة الألم لو فُرِضَت عليه قراءة الكتاب..

إنّ حالات السعادة والشقاء تتناسب طرديًا مع مستوى الفكر والوعي، لذلك هي نسبية..

سأخد إلى النومِ، لا تزعجاني.. أيقظوني بعد موتي.. (إيموجي حزين).

مشكلة الناس يا شفيق أنهم يريدون كلّ شيءٍ الآن، هم دومًا على عُجالةٍ من أمرهم، ليس مجرد إرادةٍ فحسب؛ بل إرادةٍ مع سرعةٍ.. إنهم دومًا على عجل، في سباق.. الجميع يريد أن يعيش، يريد أن يستمتع، أن ينتقل من لذةٍ إلى أخرى.. إنها مجرد إرادة..

إنّ أشدّ ضروب الحياة ألمًا هو ما كان ناجمًا عن إرادةٍ محضة.. إنها الإرادةٍ، وبسببها لن ينتهي البؤس، بسببها لن ينتهي الألم..

بسيط: أنا أحب المثلجات كثيرًا، ماذا عنك يا سبونج؟!

سبونج: أنا أيضًا أحبّ المثلجات وصيد القناديل.

بسيط: أنت تسرق إجاباتي يا سبونج.

سبونج: أنت تعلم أني أحبّ المثلجات، ولا أسرق إجاباتك.

بسيط: أنت تكذب -يا سبونج- ولا تحبّ المثلجات.

سبونج: أنا لا أكذب.. أنت من تتهم صديقك بالكذب!

شفيق يحاول التظاهر بالسعادة واستمتاعه بالخروج، وفي داخله غيض من جدالاتهما التي لا تنتهي..

بسيط يسأل شفيق بصوتٍ مرتفع: ماذا عنك يا حبار البحر؟ هل تحبّ المثلجات؟!

شفيق يُجيب بغضبٍ شديدٍ قائلًا: لا أحبها..

ثم يهمس لنفسه قائلًا: في الصمتِ لذّةٌ عميقةٌ لا يدركها عشّاق الثرثرة..

بسيط: لماذا يكذب سبونج ويدّعي أنه يحب المثلجات؟

شفيق يزداد غضبًا: اتركوني وشأني أيّها الأحمقين!

سبونج: ما بك يا شفيق تصرخ؟! هل أنت غاضب أو حزين؟

شفيق في قرارات ذاته:

- هل يتعمدان إيذائي؟ أم أنا مُفرطٌ في الحساسية؟!

وافقتُ على الخروج معهما من أجل أن يسمعا عزفي على الجيتار، ومع ذلك أخذ سبونج جيتاري وهو لا يستطيع العزف، ومن ثمّ تظاهر باللطافة والكوميديا.. وأشعل بسيط النيران وسط الماء وهو يعلم أنها ستنطفئ، ومن ثمّ جعلنا نقعد في الظلامِ، ثم صنعَ قهوةً مريرةً للغايةِ لا يُحتمل احتسائها..

الظل ينادي شفيق حبار في ظلماتِ البحر هامسًا بأذنه بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه سوى شفيق:

- لا يوجد ما هو أسوأ شعورًا من أن يهرب المرء من نفسه! يغمر رأسه بالرمالِ كالنعامة، لا يودّ سماع أحدٍ أو الاقتراب من أحد، يعيش بهروبٍ دائمٍ من كلّ ما حوله، يشعر بأن كلّ حديثٍ موجّه لهُ ويعنيه..

الإفراط في العزلة هروبٌ من الألم.. العيش في الأحلام ورفض الواقع هروبٌ من الألم.. الانهماك في العمل هروبٌ من الألم.. الإفراط في التضحية، في الأخلاق، في الطيبة، وكلّ إفراطٍ في شيءٍ ما

هو إلا هروبٌ من الألم.. البذخ والتظاهر بالسعادة كذلك هروب من الألم، ...

بسيط: ما بكَ صامت يا شفيق؟ فيمَ تفكر؟!

سبونج: يفكّر في الماضي السحيق، في الغيوم والنجوم، وكيف أنّ النجوم في الفضاء قد غادرتنا من بلايين السنين ولم يتبقّ سوى عبقها.. أليس كذلك يا شفيق؟! أنا أكثر شخصٍ يفهمك ويعلم فيمَ تفكر..

شفيق حبّار: لا؛ بل أفكّر في طريق العودة إلى المنزل.. أعطني جيتاري يا سبونج! أرغب كثيرًا بالنوم..

سبونج: ألم يعجبك عزفي يا شفيق؟

شفيق: لا؛ لم يعجبني.. عندما أسمع عزفك -يا سبونج- أشعر أن الوقت له قيمة عندي.. الجملة الواحدة تتردد عشر مرات على نفس الوزن والسياق، أو عشرين مرّة بنفس اللحن ونفس الطريقة.. من أجل ذلك أحس بالوقت وقيمته.. أنت لا تجيد العزف على الإطلاق..

سبونج: وأنت يا بسيط هل أعجبك عزفي؟!

بسيط: نعم؛ لقد أعجبني كثيرًا.. أنت حقًا ماهر في العزف يا سبونج..

بسيط بتهكمٍ قائلًا: شفيق لا يجيد العزف.. أنت أمهر منه يا سبونج..

شفيق: أنا لا أجيد العزف؛ لأنني أعيش في (قاع الهامور)، هنا لا أحد يستمع للموسيقى الراقية ولا أحد يقدّرها، هنا لا يحبّون سوى التفاهة يا بسيط!

بسيط: مهلًا! مهلًا! ماذا تقصد بالتفاهة يا شفيق؟ هل تقصدني أنا؟ أم تقصد سبونج؟ أو العملاء؟ أو مستر سلطع؟ هل نحن تافهون بنظرك يا شفيق؟!

يواصل حديثه قائلًا: اعترف يا جبان! لقد كُشِفَت أمرك.. أنت تعنتنا بالتفاهة؟! أنت متّهم يا شفيق، وعليك إثبات براءتك..

سبونج يؤيد صديقه بسيط ويضيف قائلًا: رائع! رائعٌ أنتَ يا بسيط، لقد كشفت أمره.. نعم؛ أنت يا شفيق متّهم، وعليك إثبات براءتك.. هل نحن تافهون؟!

شفيق: لا أقصدكما تمامًا، أنتما جزء صغير من منظومة التفاهة الكبرى في (قاع الهامور).. التفاهة لا تعني الكوميديا السوداء؛ كحالك أنت يا بسيط، إنها شيء آخر تختلف اختلافًا كلّيًا عن الكوميديا المصحوبة بالبؤس.. مِن الطبيعي أن أجد مبررًا ورواجًا للكوميديا السوداء للبائسين ممن يسكنون في (قاع الهامور) من أمثالك يا بسيط، وحتى أنتَ يا سبونج؛ لأنك مجرّد إسفنجة في الماء لا مخالب لديها، لكني لا أجد مبررًا لأخطبوطٍ مثلي قادرٍ على العيش في البحر لأن يكون تافهًا على الدوام.. اعذروني؛ أنا لا أحب التافهين.. التفاهة تعني أن يعيش المرء على هامش الحياة، ولستُ أنا من يعيش على هامش الحياة..

في ساعاتٍ متأخرةٍ من المساء؛ عاد أخطبوط البحر شفيق حبار إلى منزله شارد الذهن يتّجه ببصره إلى السماء، يتأمل النجوم، فيقع في حفرةٍ أثناء سيره وانشغاله في الأحلام، فالسعادة التي يستمدّها شفيق من الجمال على اختلاف صورها والسلوى التي يقدمها له الفن وحماس الفن بداخله تمكّنه من نسيان مشاغل الحياة، وتعوّضه عن الألم الذي يزداد في الإنسان بنسبة وضوح إدراكه..

إنّ هذا الإنكار في شفيق يجعله غريبًا في هذا العالم الذي تسوده المصالح الذاتية، والرغبات النفعية، والدوافع الشخصية سريعة المدى؛ لذلك نجده بامتداد بصره إلى الأمور البعيدة ورؤيته لها لا يلتفت إلى الأشياء القريبة، فلا يراها..

شفيق حبّار له رأسٌ هرميٌّ كبير، منزله أيضًا هرمي الشكل، حتى أنفه طويلة كمنزله، يبدو كما لو كان شفيق ذاته من قام بتصميم المنزل..

لديه أربعة أقدام، وذراعان، لونه فيروزي، وملابسه المفضّلة التي يرتديها دائمًا لونها بنّي، وعيناه صفراوان وحمراوان، وعندما يضحك يتحرّك كثيرًا بشكلٍ اهتزازيّ، أصلع الشعر، وله أنفٌ طويلةٌ كالمنشار..

يتململ على فراشهِ في المساء، يتحدّث إلى نفسه قائلًا:

– سيداتي وسادتي..

من أجلكم تخلّيت عن نفسي، تخلّيت عن دهشتي، شغفي، فضولي، معارفي، تأملاتي.. أصبحتُ عاديًا لا يرى في الآخرين الجمال، ولا يساندهم، ولا يساعدهم عندما يتعثرون.. لا أحلم بحياةٍ أجمل، ولا يثيرني أيّ جمالٍ في الحياة..

لا أرغب في الحديثِ مع أحد.. لا أرغب في شيء..

لم أعد أحلم.. لم أعد أعاتب أحدًا.. أصبحتُ مزيجًا من المشاعر السلبية، من القلق والخوف، من الهروب والاكتفاء، من اليأس والملل، مزيجًا من كلّ شيءٍ سيء..

فجأةً لم أعد أشعر بشيء! توقّف كلّ شيء.. لم أعد أهتم، لم أعد أبالي.. لا أنتظر أحدًا.. كجثةٍ هامدةٍ لا روح بها.. فجأةً شعرتُ أنني أصبحت شخصًا آخر اكتفى من كلّ شيء..

ثم يضيفُ قائلًا:

– لا أعلم إن كان هذا الشخص يشبهني أم لا، لكنّي حقًّا لم أكن أرغب في أن أكون هذا الشخص.. أصبحتُ جمادًا لا يُطاق من الأموات الذين لا يشعرون.. من غيرِ حُبٍّ أسير في الطرقات، أتألم بصمتٍ دون روحٍ أو مشاعر أبثّها لمن حولي.. تخلّيتُ عن الدهشة والعواطف والمشاعر التي تصاحبها؛ حتى لا أتألم ولا أحزن ولا أندم، حتى لا يسخر الآخرون منّي؛ لأشبههم حتى يرضوا عني.

الملل وفقدان الشغف والرغبة شعورٌ طبيعيٌّ يا شفيق.. ليس الملل شعورًا سلبيًا على الدوام، وليس التعوّد ما يفقد الأشياء جمالها وقيمتها، وليس فقدان الدهشة، وبرود العواطف أثرٌ سلبيٌّ على الحياة، وإنما شعورٌ طبيعيٌ يشعر به المرء من حينٍ إلى آخر..

أسوأ المشاعر وأكثرها استهلاكًا هو الخوف! الخوف من الملل أسوأ من الملل ذاته، الخوف من الفقر، من الفشل، من المرض، من الضعف، من الموت.. إنه أكثر المشاعر استهلاكًا، ويتفوّق على السعادة والحزن.. إنه عاملٌ غريزيٌ في الإنسان والحيوان، فالطفل يخاف من الظلام ومن الأشباح من قبل أن يتحدث، وتخاف القطط من الكلاب، وتخاف الفئران من القطط، ويخاف المسافر من السفر، والطالب من الفشل، والمتزوج من الملل.. لذا؛ حياتنا يسيطر عليها الخوف.. فلا داعِ لمزيدٍ من المخاوف تجاه أيَّ شيءٍ في الحياة؛ لأنّ القليل من الخوف يحفّز نحو التغيير، والكثير منه نحو التحطيم..

في الصباح الباكر؛ سبونج كعادته يستقبل العملاء بلطفٍ بوجهٍ بشوشٍ مليءٍ بالنشاط والحيوية.. قائلًا:

- صباح الخير يا شفيق! لماذا لم تستمتع بعزفي يا شفيق؟ لماذا لا تحبّ طعامي يا شفيق؟ لماذا لا تستمتع بمغامرتنا أنا وبسيط؟!

شفيق بعبوسه المعتاد لا يُجيب..

سبونج يعيد الحديثِ قائلًا:

- لقد قلتُ لك صباحَ الخيرِ يا شفيق.. لماذا لا تُجيب؟!

شفيق يغضب أكثر حدّ الانفجار..

سبونج مرةً أُخرى: أهلًا يا شفيق! لن أقول صباح الخير، ربّما كلمة صباح تضايقك.

شفيق: ما فائدة أهلًا أو صباح الخير؟! ما فائدة هرائك يا سبونج منذ الصباح الباكر؟! أصمت قليلًا، لا تقُل لي أهلًا أو صباح الخير،

وابتعد عنّي.. أنا أعلم أنه الصباح؛ هذا شيء اعتيادي، فلا تقُل لي أهلًا كما لو كنتَ مِن الغرباء..

من يغضب من أسبابٍ "تافهة" هو لا يغضب من تفاهتها؛ بل يغضب لأنه كبت نفسه في مواقف أُخرى تستحق الانفجار..

لا أحبّ أن أكتب نصيحةً أو موعظة؛ لأن النصيحة غالبًا ما تكون ثقيلةً على القلب، ويكرهها المستمع، وإن كانت في غير محلّها تزيد صاحبها ألمًا ووجعًا واكتئابًا من حيثُ لا نشعر.. ربما تكون نصيحتي صادقة ونابعة من خوف، لكن الصدق في المشاعر لا يعني التوصّل للحقائق..

إنّ أفضل ما يقدمه المرء للفرد المتقلّب المزاج هو الصمت إذا كان لا يستطيع أن يتفهّم المشاعر ودوافع الآخرين وتصرفاتهم..

أن يترك الآخرين ويتحمل عصابيته وتقلّب المزاج النابعة من الكبت الذي يعانيه في حياته، ومن الصمت المفروض عليه قسرًا ممن حوله الذين يتحدثون كثيرًا دون تفكير، بينما هو قَد فكّر كثيرًا وتأمّل وتعمّق وكوّنَ معرفةً، وحديثه ليس بثرثرةٍ وهذيانٍ، وحين يتحدّث يهزئون من كلامه في عواطفه ومشاعره وأفكاره وعلومه، ولا يجد أذنًا صاغيةً تنصت لحديثه؛ بل وتفهمه.. ليس مجرّد الانصات فقط؛ فربما ينصت الطبيب النفسي ويدّعي الفهم ولا يفهم، وليس كلّ متخصصٍ في علم النفس هو طبيب نفسي، ولا أعني أن كلّ شخصٍ يجد من يفهمه؛ لذا الاكتئاب مرضٌ شائعٌ بين الكثيرين، وهو مرض العصر..

من أسباب زيادة إحباط المحبط، وزيادة اكتئاب المكتئب هم الذين حوله، وما يقدّمون إليه من نصائح بليدة سطحية ولا تشفي آلامه وأوجاعه، وأخذها بالظاهر، والاستهزاء والسخرية منها.. إنهم يريدونه أن يكون مثلهم، ومقارنة بالآخرين؛ كما هو الحال مع شفيق حبّار الذي عانى من الاكتئاب كثيرًا، فقد كان على خلافٍ دائمٍ مع والده الذي أراده أن يكون مثلهُ تاجرًا، ولا يكون فنانًا موسيقًا، وعدم الإيمان بفكره وحرية اختياره، واختلافه، وأن الإنسان مجموعة رغبات، وكلّ روح لها رغبة أخرى، وأحلام أخرى..

واختلاف الرغبات هو سبب وجود الكون، وسبب الخلق هو الروح. والكون قائم على التناسق، والاختلاف، والتنوع، والجمال في النفوس..

إن الاكتئاب يصاب به الجميع على فترات، والبعض باستمرار، وغالبًا ما يكثر بين أوساط الفنانين، والكتّاب، والأدباء الحالمين الباحثين عن الجمال في الحياةِ وفي الأنفس، الراغبين بتغيير الحياة نحو الأفضل، أصحاب الحسّ الجمالي العالي، هم أكثر من الإنسان العادي الذي يجد من أمثاله الكثيرين يتحدّث إليهم ويشكي همومه المعتادة وقصصه المألوفة لينفّس عن ذاته.. أما من يشعرون أكثر من اللازم؛ فهم يصابون أكثر بالاكتئاب؛ لأنهم لا يجدون لمن يتحدثون.. وقد يصل الأمر إلى الانتحار إذا زاد الاكتئاب عن حدّه، كما انتحرت "فرجينيا ويلف" و"إرنست هيمنجواي" وهو حاصل على نوبل في الأدب، وغيرهما الكثير والكثير.. ومن الكتاب والرسامين؛ وأشهرهم "فان كوخ" بعد أن بتر أذنه.. ويقلّ الاكتئاب بين العلماء والمفكّرين والفلاسفة، فلا نجد علماء انتحروا ولا حتى فلاسفة انتحروا..

ومن يشعر كثيرًا يشعر بسوداوية الحياة وعبثها، وأنه لا معنى لها، وأنّ الأمل ينعدم، وحاضره مثل ماضيه، وأمسه مثل اليوم..

بسيط: أنا أشعر بالملل كثيرًا يا سبونج.

سبونج: لا عليك يا بسيط، لا يوجد ملل في قاع الهامور.. سنذهب إلى منزل السيد شفيق، وسنستمتع كثيرًا..

بسيط: فكرة رائعة يا سبونج! لا شكّ أن شفيق سيكون في غاية السعادة عندما يرانا..

سبونج بصوتٍ عالٍ: افتح الباب يا شفيق!

بسيط: افتح الباب يا شفيق!

ثم يضيف قائلًا دون توقّف: افتح الباب! افتح الباب! افتح الباب!

سبونج يردّد الكلمات ذاتها: افتح الباب! افتح الباب! افتح الباب!

وبصوتٍ عالٍ يصرخان معًا: افتح الباب يا شفيق!

شفيق يفتح الباب: من جاء بكما إلى هنا أيها الأحمقين؟! لماذا تزعجاني في وقتٍ متأخرٍ من المساء؟

بسيط: جئنا لتناول الطعام..

سبونج: لا لا؛ بل جئنا لإسداء بعض النصح إليك، فنحن نرغب كثيرًا بتحسين صداقتنا معك يا شفيق..

شفيق: ابتعدوا عن وجهي! لا أرغب بطعامك يا بسيط، ولا نصائحك يا سبونج.. أنا أعلم أنكما تتعمدان إيذائي..

ثم يغلق الباب بقوّةٍ ويذهب للنوم..

قد يحدث أن يأتي شخصٌ إليك، وبحسن نيةٍ يبدأ بتقديم النصائح بناءً على حياته الخاصة وعلى شعوره الخاص.. هو يمتلك معايير وحياة مختلفة عن حياتنا، لكنه يعتقد بأن الجميع يعيش مثل حياته، وظروفهم نفس ظروفه؛ لذلك عليهم سماع نصيحته، ويعتقد أن نصيحته نافعة للجميع، وهي في حقيقة الأمر نافعةٌ له فقط؛ لأنه لم يعِش حياة الآخرين، لذلك أحكامه ستكون ناقصة، بل إن غيره إذا حاول تطبيقها قد تضرّه أكثر بكثيرٍ مما تنفعه.. والآخر في الغالب لا يستمع إليها، ولا يجد لها أيّ تأثيرٍ في حياته، لذلك لا جدوى من تعميم نصيحة واحدة على أناسٍ لديهم معايير وحياة مختلفة؛ لأننا لا نعيش حياة الآخرين، وعلينا أولًا أن نفكر بظروفهم وبطبيعة معيشتهم، ثم نحاول تفصيل نصيحة تتناسب مع واقع

معيشتهم قبل أن نتذمر منهم ونعطيهم نصائح لا تتناسب مع حياتهم..

لذلك نجد الكثير من الناس ينفرون من النصيحة التي يقدّمها البعض، وأحيانًا من الأسلوب المستخدم في النصح؛ وليس من النصيحة نفسها..

وتكمن الكارثة الحقيقية عندما يحفظ الإنسان النصيحة، ويحاول تطبيقها بحذافيرها في كلّ حينٍ وفي كلّ أزمةٍ يقع بها دون أدنى فهمٍ لتلك النصيحة؛ لأنه ببساطةٍ لا يمكننا استعمال نصيحة واحدة في كلّ حين، وينبغي التغيير والابتكار لحلولٍ أُخرى في كلّ مشكلةٍ نقع بها.. وهذا يعتمد على ذكاء الفرد نفسه وقدرته على التفكير والابتكار..

في الصباح الباكر عاد شفيق حبّار إلى عمله كصرّافٍ آليٍّ في المطعم، وأمضى يومه بين ضجّة العملاء وضجّة الرفاق، لا يبالي بعمله في المطعم، ويستقبل العملاء بعبوسه المعتاد..

في المساء عاد لخلوته في منزله الصغير الهرمي الشكل بقاع الهامور مطأطئ الرأس، يندب حظه العاثر في الحياة قائلًا:

– لا شيء يستهويني.. لا شيء يجعلني جديدًا.. أنا منهكٌ للغاية، كلّ شيءٍ في حياتي قديم، أفكاري وعواطفي وذكرياتي وأحلامي.. أشعر بأن كلّ شيءٍ في حياتي بات مألوفا للغاية.. استسلمت للعادي، لكلّ شيءٍ عاديٍّ، ولم أجنِ شيئًا من العاديّ.. توقّفتُ عن القراءة، ولم أعد

–

أكتب سوى الخواطر الفارغة في المساء، ولم أعد أستمع للموسيقى.. اعتزلت الناس، ولم أعد أمارس حقّي في التأمّلِ والتفكير..

يا صاح! لم أعد أحس! حتى الإحساس تبلّد.. أصبحتُ قليل الكلام والمشاعر، مفرطًا في الواقعية، عاديًا للغاية، وهذا الشيء يقلقني كثيرًا..

لم أستطِع أن أكون إنسانًا عاديًّا، ولا مميزًا، ولا شيء! أنا والعدم سواء.. أرغب كثيرًا أن أكون إنسانًا عاديًا؛ عاديًا للغاية، أن أكون إنسانًا ناجحًا يمتلك شركاتٍ يديرها عن كثب، وحسابات، وأرصدة في البنك، وأشتري سيارةً فارهةً، وأتجول بها بقاع الهامور..

أنا على استعدادٍ لأن أعمل من الصباح حتى المساء مثل الحمار، فقط أخبروني ماذا أفعل؟! أليس العاديّ أفضل منّي أنا الغارق في الأوهام؟!

كم أجني أموالًا من عواطفي؟ يجيب نفسه قائلًا: لا شيء..

كم أجني أموالًا من أفكاري؟ أيضًا لا شيء..

كم أجني أموالًا من أحلامي؟ لا شيء..

كم أجني أموالًا من كتبي؟ لا شيء.. لا شيء.. لا شيء.

****

يا شفيق؛ لكي تصبح ثريًّا يُغدَق عليك المال من كلّ حدبٍ وصوبٍ في بضعة شهورٍ الأمر صعبٌ للغاية، ولكن سأساعدك، ولن تعيش في الأوهام بعد اليوم..

ليست العظمة ولا الصعوبة أن نتفاءل في الظروف الجيّدة، فالجميع قادر على ذلك، ولكن العظمة هي أن نتفاءل في المأساة، أن نتفاءل في الظروف الصعبة، أن نتحمّل الطرقات الشاقّة الموحشة..

التشاؤم علامة الضعف، والتفاؤل المجرّد علامة السطحية في التفكير وقصر النظر.. أما التفاؤل الحزين أو التفاؤل في المأساة؛ فهو صفة الرجل القويّ الذي ينشد شدّة التجربة واتساع مداها.. والفِكر طالما لم يحسّن الحياة فهو لونٌ من ألوان الشقاء..

تواضَع قليلًا يا صاح! خُذ نفسًا عميقًا.. احذر من الإفراط في الهدوء.. احذر من الإفراط في الصمت.. احذر أن يشبه هدوؤك وتأمّلك هدوء الكلب أمام الجزّار، يمنعه الخوف من التقدّم، وتمنعه الرغبة من التراجع..

يا شفيق!

إذا كنتَ تفكّر بالماضي؛ فأنت مكتئب..

إذا كنتَ تفكّر بالمستقبل؛ فأنتَ قَلِق..

أما إذا كنت تفكّر في الإثنين؛ فأنتَ في الجحيم!

شفيق حبّار:

– نعم؛ أنا أفكّر في الإثنين.. أفكّر في الماضي، وأفكر في مستقبلي المظلم..

ثمّ يضيف قائلًا:

– في الماضي؛ كان لي فتاة جميلة تُدعى (قبعة).. لم أكن أنوي البُعد عنها، لكنها لم تعمل شيئًا يجعلني أستمرّ من أجلها.. كنتُ دائمًا أختارها، وكانت دائمًا تخذلني.. نحن الآن لا أصدقاء ولا أعداء، مجرّد أيامٍ عَدَّت.. لا أستطيعُ نسيانها، ولا أستطيع السير بدونها..

شفيق مواصلًا حديثه:

– إياكَ أن تخبرني وتقول لي "كُن قويًا بمفردك! أنت لا تحتاج لأحد".. نعم؛ أنا قويٌّ بمفردي، ولكن القوّة وحدها لا تكفي، كما أن الشجاعة وحدها لا تكفي، كما أنّ الحب وحده لا يكفي، ولا المال، ولا شيء آخر يكفي..

قد يكون المرء بمفرده حُرًا طليقًا دون قيودٍ وأثقالٍ تُكبّله.. قد يكون المرء بمفرده سعيدًا، ولكنه لا يكون بخير.. لقد انطفأتُ يا ظِلّي! انطفأتُ تمامًا..

سأناديكَ من اليوم "ظلّي"، فأنت تتحدث إليّ بشكلٍ دائمٍ، وتحشر أنفك في حياتي، ولستُ أعلمُ من أنت، ولا أعلم ماذا تريد منّي!

- يا شفيق! لا تخشَ الانطفاء، واحذر من التوهُّج!

الانطفاء يعني البداية؛ بداية كلّ طريق، بداية كلّ تحوّل، بداية كلّ تغيير، وبداية كلّ نضج.. فعندما ينطفئ المسرح؛ يبدأ الفيلم العرض، وعندما ينطفئ الطعام؛ نبدأ بالأكل، عندما تنطفئ الأخشاب؛ تتحوّل إلى فحمٍ نافع، عندما ينطفئ القمر؛ تُبزع على إثره الشمس.. الانطفاء يعني التحوّل من المتعة إلى الفائدة.. أنتَ لا تكون شخصًا مفيدًا إذا كنتَ مشتعلًا.. قد تكون ممتعًا، ولكن دون فائدة.. توهّج الشباب ممتع، لكنه غير مفيد.. التوهج ممتع، ولكن الانطفاء مفيد.. وفي ميزان العقل والحكمة؛ الفائدة أهم من المتعة..

أنتَ أجمل عندما تنطفئ.. أنت تتعلم أكثر عندما تنطفئ، فلا تخشَ الانطفاء، واحذر التوهّج!

سأقرضك من جيبي الخاص مبلغ خمسة ملايين ريال، وأساعدك في مشروعك الخاص، وستجني على إثره أرباحًا بمبلغ ثلاثمائة ألف ريال شهريًا كبداية، فهل توافق؟! هل أنت على استعدادٍ للتعلّم؟ هل أنت مستعدٌّ للعمل؟!

شفيق حبار يُجيب قائلًا:

– ستقرضني خمسة ملايين حتى أصُبح إنسانًا عاديًا! أنا حقًا ممتنٌ لك، ومن دونكَ لن أكون عاديًّا..

لم أكن أعلم أن العاديّ عظيم، عظيمٌ للغاية مثلك، وصعبٌ للغاية.. سأكون ممتنًا لك على الدوام..

ثم يضيف شفيق حبّار قائلًا:

– أنت تعلم أنّي لا أجيد شيئًا سوى العزف على الآلات..

الظل:

– اذهب إلى مستر سلطع..

شفيق حبار:

– أنت تعلم أن السيد (سلطع) جشع للغاية، ولا يساعد العملاء، ومن المستحيل أن يرشدني، من المستحيل أن يقرضني المال أو يتركني أعمل بمفردي..

****

في صباح يومٍ جديدٍ بدأ شفيق حبّار بالتفكير بجدٍّ بعمل مشروعه الخاص، وقرر الرحيل من محلّ عمله كمحاسبٍ لدى (مقرمشات سلطع)، وقرر الاستعانة بمدير مطعمه السيد (سلطع) ليتعلم منه فنون التجارة وطرق جني المال؛ ليستقلّ بعمله ومشروعه الخاص..

مستر سلطع عبارة عن سرطان البحر لديه مطعم وجبات سريعة يُدعى "مقرمشات سلطع"، وهو يحبّ المال كثيرًا.. هو قصيرة القامة، ممتلئ الجسم، لديه أنف مجعّد، ومخالب كبيرة، واهتمامه الوحيد هو الحصول على المال.

سلطع:

– عندما كنتُ صغيرًا؛ كنت أظن أن المال أهم شيء في الحياة، وعندما كبرتُ تأكدتُ من تلك الظنون.. أنا أحبّ المال حبًّا جمًّا..

لا أخُفيكم أنّ المال هو سر سعادتي في الحياة.. عندما يتوافد العملاء إلى مطعمي تتوسع حدقة عيني، ويمتلئ وجهي سعادةً، وأقهقه عاليًا حتى يسمع (شمشون) ضحكاتي ويزداد غيظًا..

تقولون أن المال مصدر كلّ الشرور، وأنا أقول بل المال مصدر كلّ السرور.. تدّعون أنكم لا تحبون المال وأنتم تعملون من الصباحِ حتى المساء! إذا كنتم لا تحبون المال؛ فلماذا تعملون طوال اليوم؟! لمَ تكدحون وترهقون أنفسكم؟!

أنتم لا تكرهون المال؛ بل أنتم عاجزون عن صنع المال.. سيقول العمال الكادحون والفقراء من الناس نحن مظلومون والأموال تذهب للأثرياءِ من أمثالي.. نحن نعمل من الصباح حتى المساء، ولا نحصل سوى على الفتات من المال..

ماذا لو أخبرتكم عن حقيقتي؟!

لقد كنتُ عاملًا مثلكم، كنتُ من طبقة العمّال (البلورتاري) قبل أن أصُبح (برجوازي)، ولن أكون يومًا (ارستقراطي)..

أنا لا أسمع الموسيقى، ولا أتعمّق في الفلسفات، ولا أعمل في الحكومات.. نجاحي صنعته بنفسي ولنفسي.. ستقولون: "من أين لنا بوصفةٍ سريةٍ مثلك؟! ما سرّ نجاحك يا مستر سلطع؟! أنتَ مُتّهم.. مطعمك مشبوه.. هل تقتل السلاطع الصغيرة وتضعها في البرجر؟!"

مستر سلطع يُجيب قائلًا:

– لكلّ مهنةٍ سرّها الخاص، ولستُ مجنونًا حتى أكشف سرّ مهنتي..

يكمل سلطع حديثه قائلًا:

– إن حدث ورأيت شخصًا متفوقًا عليك في مجالٍ معيّنٍ، فاعلم أنه يعمل أشياء لا تعملها، ولديه اهتمامات لا تعرفها، ومن المخجل جدًا أن تحاول تقليده دون معرفة ماهية تلك الأشياء..

الغرور والخجل والجمود والخوف من المخاطر ماهي إلا أنواع من الغباء البشري التي يجب تجنبها لكلّ من أراد النجاح..

من المخجل جدًا أن تحاولوا تقليدي.. من المخجل جدًا أن تحاول -يا شمشون- تقليدي.. من الصعب جدًا أن يتحول الفقير الكادح إلى غني مثلي.. من الممكن جدًا أن يتحوّل متوسط الدخل إلى

غنيّ مثلي إذا أحسن استغلال موارده.. من الممكن جدًا أن يتحول (سبونج) إلى شخصٍ ثريٍّ مثلي.. أما أنت يا شفيق؛ لا أمَل لك في الثراء، ولا أنتَ يا بسيط..

وعلى الرغم من ذلك؛ فالأغنياء من أمثالي معرّضون على الدوام للإفلاس، وليس للفقر، فالفقر دائمٌ يلزمك إلى الأبد، أما الإفلاس؛ مؤقت.. الأغنياء يتعرضون للإفلاس..

شفيق يقطع الحديث قائلًا:

- أيّها البرجوازي الغني؛ ما سرّ جذبك للعملاء؟!

مستر سلطع يُجيب بابتسامته المتصنعة:

- سرّ جذب العملاء هو الابتسامة يا شفيق.. كآبتك سر ابتعاد العملاء..

(هناك مثل صيني يقول: إذا كنتَ لا تحسن الابتسامة فلا تفتح متجرًا).

سلطع مواصلًا حديثه:

- العملاء يهتمون بالدراما.. يموت أحدهم بالسقوطِ من على متن طائرة، وعلى إثرها ينتشر الخبر كالريح، وتتداوله الصحف والمواقع أو أيّ شيء آخر يبدو دراميًا أو حدثًا يبدو مشوقًا.. أما إن مات أحدهم بالجلطة أو السكر أو بحادث سيرٍ؛ سيبدو الخبر كما لو كان عاديًا لا إثارة ولا تشويق فيه..

-

كذلك العملاء؛ عندما يكون المنتج دراميًا مثل برجر من الصدف البحرية؛ وليس دجاجًا، أو من السلاطع المقتولة في أحشاء البحار سيتوافد العملاء إليك.. ومن المهم أن تكون المقرمشات لذيذة طبعًا، ولكن الدراما أولًا..

يقول عدوّي الأول (شمشون) أني شخصٌ محظوظٌ ولا أكدح في جني الأموال، وأنه أكثر منّي ذكاءً وعبقريةً، ومع ذلك لا يجني سوى الفشل..

سلطع يكمل:

– نعم أعترف أني محظوظ، ولكن أنا من يجلب هذا الحظ، أو على الأقل أجلب نصف الحظ، والنصف الآخر ليس في يدي..

الحظ -يا شمشون- كالنهر الهائج القوي سريع التيّار، يفيض على السهول، ويقتلع الشجر، ويهدم المباني، وينقل التربة من شاطئٍ إلى آخر، يفرّ الناس منه، ويستسلم الجميع لهياجه، ولا يقوون على الوقوف أمامه، ومع ذلك ورغم طبيعته هذه فإن الناس يظلون قادرين على مواجهته والاحتراس منه، فهم يبنون السدود والجسور حين يكون هادئًا، فإذا ما هاج يجري في قناةٍ أو تقلّ خطورته واندفاعه..

الحظ تظهر قوته إذا لم توجد تدابير ضدّه.. الحظ موجود، ولكن الحظ لا يظهر ضدّك بقوّةٍ إلا بمساعدتك..

ثم يكمل حديثه قائلًا:

– أنت -يا شمشون- تعمل بمفردك، كما أن السيّد شفيق يريد أن يستقلّ من مطعمي ويعمل بمفرده..

ثم يضحك سلطع ضحكة بصوتٍ عالٍ، ضحكةً أشبه بالازدراء والسخرية قائلًا:

– بمفردك -يا شفيق- لن تستطيع صناعةَ فطيرة واحدة في اليوم! العامل غير المدرب مثلك ولا المعتاد على استخدام الآلات الحديثة في الطهو حتى وإن بذل قصارى جهده لن يصنع أكثر من فطيرةٍ واحدةٍ في اليوم.. يمكنك أن تستمرّ في العزف، هذا أفضل لي ولك، فالأمر ليس مجرد صنعة فقط، أنت تعلم أن العمل يحتاج إلى فريقٍ بالكامل، وأنت مجرّد فردٍ في فريقنا الناجح.. عاملٌ يستقبل العملاء، وآخر يلاطفهم، وآخر يقطع الطعام، وآخر يدببه، ومسؤول عن التخزين، ومسؤول عن الضرائب والتحصيل، وآخر مسؤول عن الدعاية والإعلانات، ومحاسبٌ عابس الوجه مثلك..

أما صناعة البرجر؛ فتستلزم ثلاث عمليات متتالية: شراء السلاطع من أماكن لا تعلمها، ومن ثم تقطيعها، وطهوها..

العامل الواحد في مقرمشات سلطع ينتج أربعة آلاف وخمسمائة فطيرة في اليوم من فطائر مستر سلطع، وإن كنت تعمل وحدك فلن تصنع فطيرةً واحدةً على الأرجح.. إذا أردتَ أن تكون تاجرًا ناجحًا فلا تضع البيض في سلَّةٍ واحدة.. لمن لا يحسن إدارة الأموال، لمن يعمل

لأول مرة؛ من أجل توزيع المخاطرِ لا تضع البيض في سلةٍ واحدة، فقد تقع السلّة ويتكسَّر البيض كلّه..

وضع رأسمال كبير قد يكون معظمه أو جزء كبير منه قروضًا من مصارف أو أشخاص في مشروعٍ تجاريٍّ أو صناعيٍ واحدٍ قد يتسبب لصاحبه في نتائج كارثية تؤثر على مجرى حياتك كلّها إذا فشل المشروع لأيّ سببٍ من الأسباب، حينها تضطر إلى بيع كلّ ما تملك لأداء هذه القروض أو تدخل السجن عند عدم قدرتك على الإيفاء بالتزاماته..

ليتك تتعلّم القناعة من (بسيط نجم البحر)، أو تتعلم النشاط من إسفنجة البحر (سبونج بوب)، أو تعود كما كنت صامتًا على الدوام.. ألم تقل أنت (في الصمت لذّة عميقة لا يدركها عشّاق الثرثرة)؟! استمتع بصمتك يا شفيق؛ إنه على الأقل مجانيّ، أو أكثِر من النوم كالسيد (بسيط نجم)؛ إنه أيضًا مجانيّ.. كلّ ما هو مجاني استمتع به، ربما لا يدوم إلى الأبد مجانيًّا..

استمرّ في عملك، وإيّاك أن تفكر بالمغادرة أو حتى المنافسة.. لا تعتبر الأمر تهديدًا، واعتبره نصيحة..

شفيق في لحظة غضب:

- أنتَ تقصد أن أتعلم الكسل من بسيط نجم وليس القناعة.

شفيق:

- بسيط شخص كسول لا يجيد شيئًا سوى النوم والأكل..

بسيط يستمع إلى حديثهما من وراء الباب، ثم يدخل المطعم بصخبٍ شديدٍ وبصوتٍ عالٍ يخبط على طاولة الطعام ويصرخ قائلًا:

- أتقول أني كسول يا شفيق؟!

شفيق: نعم؛ أنت كسول.

بسيط بغضب: حسنًا يا شفيق؛ ستعلم ولو بعد حينٍ من أنا..

سبونج: ما بكما تتشاجران؟!

بسيط: هذا الأحمق هزيل الجسد يقول أنني كسول.

سبونج: اهدأ يا بسيط.. لعلّه لا يقصد، وأراد تحفيزك على النشاط..

بسيط: ما العيب في أنني أحبّ الطعام وأكره الأعمال الشاقة؟! أنا أكثر منك سعادةً في الحياة، وهذا يكفي..

يضيف بسيط بتهكّم: حتى أنت كسولٌ يا شفيق..

شفيق: أنا لستُ كسولًا، ولكني مشغولٌ على الدوام..

****

المشغولون دائمًا هم أشدّ الناس كسلًا في الحياة.. قد تستغرب من كلامي، قد تقول: كيف يكون المشغول أشدّ الناس كسلًا وهو لا يجد الوقت حتى لإصلاح مشاكله! ماذا عن الفارغ الذي لا يعمل؟ ماذا عن الذي يعمل قليلًا ويرتاح قليلًا؟ من منهم الكسول؟ ومن منهم النشيط؟! أليس المشغول أشدّ الناس نشاطًا لا كسلًا؟!

مستر سلطع مشغولٌ على الدوام، هل يعني ذلك أنه أشدّ الناس كسلًا؟!

نعم؛ هو أيضًا كسولٌ على الرغم من أمواله ونجاحه المالي، ولكنه لا يجد الوقت لإصلاح مشاكله العائلية، وهذا هو الكسل بعينه، أن لا تجد الوقت لإصلاح مشاكلك..

كلّنا يعلم قصة رجل الأعمال (سلطع) الذي يكدّ في أعماله ليجمع الأموال.. تراه يقضي ساعاتٍ عجاف بعيدًا عن منزله حتى في العطلات الأسبوعية، لا يرى أهله، ويرجع لمنزله فيجده خاويًا على عروشه..

لقد كان يعلم بوجود المنغصات بينه وبين أهله، ومع ذلك تجاهلها بحجّة الانشغال، ولم يبادر لإصلاحها.. ظلّ منشغلًا بعمله، فانهار منزله، وعاد إلى بيته وقد هربت زوجته مع ابنته..

أليس ذلك لونٌ من ألوان الكسل؟ إنه الكسل بالانشغال، الإنهاك في الأشياء، إنه أشدّ أنواع الكسل..

في قاع الهامور هناك العديد من السلاطع لم يسمح لهم انشغالهم برعاية ثرواتهم، وكان الانشغال سببًا رئيسًا لفقدان ثرواتهم

وصحتهم وحياتهم.. هناك أناسٌ مشغولون لا يسمح لهم انشغالهم برعاية صحتهم.. إن لم يكن انشغالهم بالعمل؛ فإنهم ينشغلون بالقراءة، أو مشاهدة التلفاز، أو تناول الفطائر..

****

بسيط نجم البحر

بسيط نجم البحر، ورديّ اللون، يعيش في "قاع الهامور"، شخصية مضحكة جدًّا ولطيفة، يتّصف بأنه (بطيء الفهم) ويميل غالبًا إلى الهدوء، وأحيانًا يصدر بعض الضوضاء.. هو صديق مقرب لسبونج بوب، يحبّ كثيرًا تناول المثلجات، يهوى عمل الفقاقيع وصيد قناديل البحر.. يرافق سبونج بوب في مغامراته، ودائمًا ما يقدم له سبونج بوب النصائح والإرشادات.. يمضي ساعاتٍ طويلة نائمًا في منزل "الصخرة".

بسيط متحدثًا إلى صديقه سبونج:

– هل أنا غبيٌّ يا سبونج؟ أنت صديقي المقرب، وتعلم -يا سبونج- أني لستُ غبيًّا! نعم أنا كسول، وأحب الطعام، وأحب النوم كثيرًا، وأحب المقرمشات، وأكره التفكير والتعلّم، ولكني لستُ غبيًّا.. أنت تعلم ذلك يا سبونج..

في اليوم الذي ثابرتُ به كتبتُ أروع قصيدة: (بسيط.. بسيط يا نجم البحر، صنعت لنفسي فطيرة، وأسيمتها سميرة)، وتغنّى بها أهل الهامور جميعًا.. حصلتُ على جائزة أكثر شخص يأكل (البرجر)، وكنتُ حديث الصحف والمجلات، لكني لم أرغب بهذه الحياة..

شعرتُ أنني محاصر يا صديقي.. فقدتُ كثيرًا من حماقاتي، فقدتك أنت يا سبونج! ما فائدة النجاح دون سعادة؟! ما فائدة الشهرة الغبية دون أصدقاء؟! الشهرة تسرق حياتي الحقيقية يا (سبونج)، النجاح يأسرني، يفقدني لذة الاستمتاع في لحظاتي الجميلة.. أتعلم؟! أنا أفقر شخص في (قاع الهامور)، ولا أمل لي في الثراء يومًا، وأعيش على الأجر اليوميّ، ولا أمتلك تأمينًا صحيًا مثلك ولا راتبًا شهريًا، يلتهمني سلطع كما تلتهم الأسماك الكبيرة الأسماك الصغيرة، كما تلهتم الأكباش الغذاء..

عندما يعاملني (سلطع) بلطفٍ ويقدّم لي أجود الأكلات أدركُ على الفور أنه يُفكر في ابتلاعي أو تخفيض عمولتي.. نعامل كالخراف يا صديقي، يُقدَّمُ إليها الطعام الشهيّ وتظنهُ حبًّا، حتى تأمن ويتم ذبحها.. هكذا حياتنا نحن العاملين في (برجر سلطع)..

في قاع الهامور أسْكنُ، آكلُ الأطعمة غير الصحية، وأعيش في صخرةٍ صغيرةٍ لا تقيني من البرد ولا المطر، وعلى الرغم من ذلك؛ أنا أكثر شخصٍ يضحك.. أنا أكثر سعادةً منكم، أكثر شخص يبتسم، أكثر شخص يلقي النكات..

أعيش مغامراتي الجميلة برفقتك يا (سبونج)، وحياتي مليئة بالأحداث المشوقة.. لا أستطيع أن أكون سوى نفسي (بسيط نجم).. أفضّل أن أعيش حياةً صغيرةً أملكُها على أن أعيش حياةً كبيرةً تملُكني..

تكفيني في الحياة صداقتك يا سبونج..

كتبت لك يا سبونج رسالةً عن الصداقة، أتمنى أن تنال إعجابك يا صديقي..

صديقك الحقيقي من يتحمّل تقلباتك ونوباتك وجنونك، ويلتمس لك العذر دومًا..

صديقك الحقيقي لا تحتاج أن تبرر له موقفك وتصرفك؛ لأنه يعرفك جيدًا..

صديقك الحقيقي من تتحدث إليه وكأنّك تتحدث إلى نفسك، ويرتفع عنك الحرج والكلفة، ولا تحتاج أن تغير سجيتك وطبيعتك لإرضائه..

صديقك الحقيقي لا تخشى من سوءِ فهمه، لا تخشى من التعبير أمامه عما يجول بخاطرك من أحاديث..

ذلك الذي ينتظر خطأك أو سوء تعبيرك، ومن ثم يخبرك "ظهرت حقيقتك على زلة لسانك.. أنكشف قناعك أُيها الخلوق"؛ لم يكن صديقك من البداية؛ لأن الحقيقة لا تظهر، فالحقيقة لا وجود لها بين الأصدقاء..

سبونج بوب سكوير بانتس

سبونج هو الشخصية الرئيسية في الكرتون، والأكثر شعبيةً دون منافس..

ترى؛ هل هو طيب؟ أم شرير؟! بريء؟ أم متهم؟!

أعلم بأن الحديث عن (سبونج) سيزعج الكثيرين، ولا أرغب بإزعاج أحدٍ أو خدش صورته الجميلة أمام محبيه، ولكن هناك بعض الشكوك حول علاقة (سبونج) (بشمشون)، فالجميع ضد شمشون بما في ذلك سبونج.

هل سبونج شخصية حقيقية؟!

سؤال آخر: لماذا نال سبونج بوب شهرة واسعة وصلت إيراداتها بلايين الدولارات ودخلت كلّ دار، ونجد البعض يتعاطف معه ويبكي ويحزن ويتأثر بكلّ تفاصيله؟! ما هو الشيء المميز في (سكوير بانتس)؟!

سنحاول الإجابة عن هذا السؤال وغيره..

قد تكون بعض الحقائق صادمةً، وقد تكون بعضها كوميديةً، وبعضها علميةً، وبعضها واقعية، وبعضها معروفة، وبعضها خياليًا.. فشخصية (سبونج) حقيقية، لها أساس طبيعي، وليست شخصية خيالية كما يخيّل إليكم..

كلّ شيءٍ صناعيّ له أصل طبيعي، وكلّ شيء طبيعي له نمو صناعي، فالتعبير طبيعي، واللغة صناعي، والدين طبيعي، ورجال الدين صناعي، والمجتمع طبيعي، والدولة صناعي، والاسفنج (طبيعي)، والرسوم الكرتونية (صناعي)..

شخصية (سبونج بوب) لها أساس طبيعي وهو (الإسفنج)، وقد قام بتصميمها عالم الأحياء البحري (ستيفن هلينبرغ).. والإسفنج كائن حي يتنفس، يحسّ، ويتألم على الرغم من أنه لا يمتلك قلوبًا ولا أدمغةً ولا أطرافًا ولا معدة ولا جهازًا عصبيًا، ولذا يصفه العلماء بأنه

الحيوان الذي حاولت الطبيعة أن تشكّله بعد أن خلقه الله على هذه الصورة لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو..

سبونج: إسفنجة صفراء؛ ليست مربعة الشكل، ليس إسفنجة الصحون؛ بل إسفنجة البحر.. لا يمتصّ الماء، بل يعيش داخل الماء.. يحب الفقاعات وصيد القناديل..

يُقال أنه يحبّ (ساندي أمور) ويلاطفها أحيانًا، وشخصيًا لا أعتقد ذلك، ولا يعنينا ذلك كثيرًا، ولا أعتقد أن شخصيات الكرتون على علاقة جيدة بالجنس الآخر، وكلّها كائنات تتكاثر تكاثرًا لا جنسيًا بالتجدّد والتبرعم؛ ولذلك لا ميول جنسية لديهم..

يسكن في ثمرة أناناس، يعمل كطاهٍ مع شفيق في مطعم مقرمشات سلطع.. سبونج سريع البكاء كالطفل، وسريع الضحك، اجتماعيٌّ ومحبوب.. في معظم أوقاته يتصرّف بغباء؛ أو يدّعي الغباء وهو ليس غبيًّا تمامًا..

كوميديٌّ ومرح، ولكن بنظري (بسيط نجم البحر) يتفوّق عليه في الكوميديا والبساطة والعفوية..

سبونج يحب اللعب والمرح، ولا يستسلم سريعًا، لا يميل للكآبة، ويجمع بين براءة الأطفال وصبر الجمال.. من محبي صيد القناديل وأكل مثلجات.. يحب العمل الشاق، فهو على عكس معظم الشخصيات (كسولة ومتهورة)؛ هو نشيط، ولا يتغيّب عن العمل، ويرى العالم بصورة إيجابية، ومن النادر جدًا أن يكون شخصًا سلبيًا..

سبونج بوب يحاول أن يكون قاسيًا في بعض الأحيان؛ ليظهر أنه قوي وشجاع، ولكنه بعيد تمامًا عن القسوة رغم مخاوفه الكثيرة.. هو شجاع، ويميل للتضحية بنفسه من أجل إسعاد من حوله، وأحيانًا يمثل دور تابع مطيع (لمستر سلطع)..

كلّ قوّته تنبع من أصدقائه المقربين، فهو يحبّ كلّ من يعرفهم، ويحرص على رعايتهم وحمايتهم والدفاع عنهم؛ حتى أعدائه..

يشترك (سبونج) (ومستر سلطع) في منع (شمشون) من سرقة الوصفة السحرية..

شمشون قصير القامة، ضعيف البنيان، لا يكاد يظهر من فرط قصره، إلا إن صوته مزعج للغاية (صوته أكبر منه).. الجميع يمنعه من الوصول (للوصفة السحرية)..

يُقال أنه لا يريد سرقة الوصفة السرية؛ بل يريد فضح مكوناتها..

وفي إحدى الحلقات كان يقول: "ستعلمون ذلك ولو بعد حين"..

ومن الملاحظ أن (شمشون) أذكى من أن يعجز عن صناعة وصفة سحرية سخيفة، وهو الذي اكتشف آلةً صناعيةً تتكلم، وله العديد من الاختراعات العبقرية، ومع ذلك يعجز عن صناعة وصفة سحرية!

في اليوم الوحيد الذي نجح فيه (شمشون) وبدأ الزبائن بالتدفق إلى محله والحصول على القليل من المال بعد سلسلةٍ طويلةٍ من الفشل والمعاناة؛ قام مستر (سلطع) بهدم محله وتكسيره بحقدٍ شديدٍ لا مبرر له سوى جشع الرأسمالي على العامل البروليتاري الكادح..

يُقسم (سبونج) بمحض الإيمان المغلظ بأن لا يعرف أحد سرّ الوصفة السحرية، ويتفق في ذلك مع (مستر سلطع)..

يُقال أن الوصفة السحرية مكونة من سلسلة سلاطع؛ جميعها مقتولة، قتلها (مستر سلطع)، ومنها أنتج وصفته السحرية.. وفي نظريةٍ أخُرى تؤكّد أن (سلطع) كان يأخذ جثث البشر الغارقة في المحيط ويوصلها (لقاع الهامور)، ويعمل منها البرجر والفطائر المشبوهة!

مع ذلك توصف شخصية (شمشون) بأنها الشخصية الشريرة الوحيدة في المسلسل!

شمشون في كلّ مرةٍ ينجح من أجل مساعدة زوجته (كارن)، وبعد دعمها له بكلّ ما تملك من المال يأتي سلطع ويهدم محله ويكسره!

أعتقد أن شمشون لا يريد سرقة الوصفة من أجل أن ينجح؛ بل يريد فضح سلطع ومعرفة مكونات الوصفة لما حولها من شكوك، ومن ثم تقديمهم للمحاكمة العادلة..

نعود إلى العالم ستيفن هيلنبرغ، ونترك الدراما قليلًا والحقائق الصادمة:

ستيفن هيلنبرغ مبتكر شخصية سبونج بوب يدرس الأحياء البحرية (في دانا بوينت بولاية كاليفورنيا)..

كان هيلنبرغ مولعًا بالمحيطات خلال طفولته، وبدأ في سنٍ مبكرةٍ بتطوير قدراته الفنية، وأثناء دراسته الجامعية تخصص هيلنبرغ في الأحياء البحرية وفي الفن والرسوم، وبينما كان هناك ظهرت له الفكرة التي قادت لابتكار سبونج بوب سكوير، وهذا الابتكار أساس نجاح المسلسل؛ لأنها شخصية طبيعية وتعتبر من الحيوانات البحرية، لذلك نشعر بأن لها نفحة روحية حقيقية، وهذا ما يميز الكرتون..

سبونج:

– أنا كثر شخص يحبّ أصدقائه، ويحاول مساعدتهم.. سأفعل كل ما بوسعي لأجل أصدقائي.. حتى أنت يا شمشون؛ أعاملك بلطفٍ بشكلٍ دائمٍ على الرغم من أنك تشكل خطرًا حقيقًا على مقرمشات سلطع وتحاول بشكلٍ دائم تفجيره.. كما أني أتمنى العمل لدى مطعمك (دلو الصداقة)، ولكنك لم تقدّم لي عرضًا مغريًا..

ثم يضيف قائلًا:

– أنت -يا شمشون- تمثل خطيئةَ الحسد، وشفيق يمثل خطيئة الضجر، وسلطع يمثل خطيئة الطمع، وبسيط يمثل خطيئة الكسل..

شمشون قاطعًا الحديث:

– وأنت الأنا وحبّ الشهرة والظهور..

–

شمشون هو الشخصية الوحيدة في الكرتون التي تصف بالشخصية الشريرة، فهل الأمر دقيق؟! هل شمشون شرير؟ أم بريء مظلوم؟ ولماذا الجميع ضدّ شمشون بما في ذلك سبونج؟

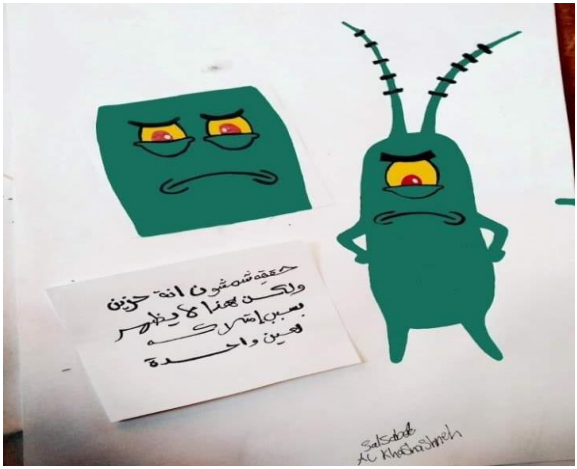

شمشون:

– الجميع يراني شريرًا.. هل أنا شرير؟! هل أنا وحدي مصدر الشرّ في الكون؟

في اليوم الذي نجحت فيه وبدأ العملاء يتوافدون على مطعمي؛ حطّم (مستر سلطع) المطعم بالكامل وأحرقه..

يقولون أني شرير؛ لأني أمتلك عينًا واحدةً وأبدو غاضبًا، ولو كان لي عينين ونظرت إليّ بعين الحقيقة لوجدتني حزينًا مفرطًا في الحزن حدّ الكآبة..

شمشون لزوجته كارن في لحظة حزن وألم:

– لقد غطّاني سلطع بالقنافذ، أطعمني للحصان، عرضني للدغ الشديد، أطير في الهواء، يطير في الهواء، أختبئ بالمعدة يختبئ بالمعدة.. لقد اكتفيت.. ألا ترين؟! لقد انتهى أمرنا يا كارن..

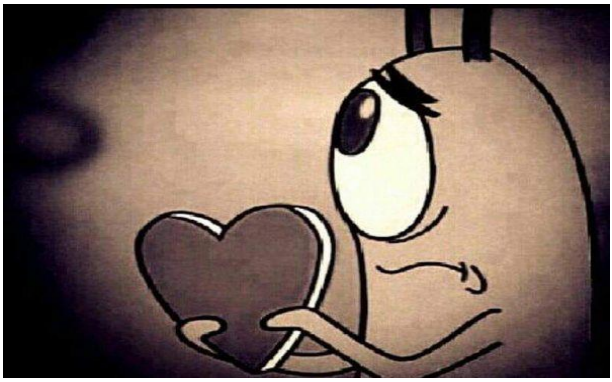

سبونج يجتمع بأهل الهامور، ويتحدث للصدف والمراجين والطحالب والقنافذ وحتى العوالق البحرية الأقل ضعفًا والأصغر حجمًا قائلًا:

– لو تعاونّا كلّنا ضد شمشون ووضعنا خطةً محكمةً سنتمكن من هزيمته..

ثم يضيف قائلًا:

– شمشون يريد أن يدمّرنا جميعًا.. حتى العوالق البحرية التي من جنسه؛ يرغب بتفجيرها.. علينا أن نتحد جميعًا لإخراجه من قاع الهامور لنعيش بأمان..

سلطع:

– شمشون يمثل خطرًا حقيقيًا على الأمن في المدينة، ولا ينبغي الاستهانة بقدراته..

سلطع يتحدث لسبونج قائلًا:

– يوجد عميل يحبّ مقرمشات شمشون ويأكل من مطعمه.. أعيدوا إليّ هذا العميل بأسرع وقت، لا ينبغي لأحدٍ أن يحبّ مأكولات شمشون.. أنت تعلم أنني لا أحب المنافسة، ولا أحبّ شمشون.. لا أتحمل حتى عميلًا واحدًا يأكل لدى مطعم شمشون.. ماذا لو أعجبه الطعام وتخلّى عن فطائرنا؟!

عاد شمشون إلى منزله المعلّق في طبقة ماء البحر القريبة من السطح خائب الرجاء كعادته بعد حربٍ شرسةٍ شنّها سلطع ومعاونيه من السلاطع ضد شمشون ومطعمه الصغير المسمى (دلو الصداقة)..

لم تكن الحرب مجرد تهديد وتخويف لأهالي المدينة من هجمات شمشون المحتملة؛ مع أن حجم شمشون لا يكاد يُرى بالعين المجردة.. لم تكن مجرّد حرب إعلامية وتشويه لمأكولات شمشون وجودتها فحسب؛ بل وضع السيّد سلطع مراقبة مشددة لمنع العملاء من الدخول لمقرمشات شمشون، ونشر التحذيرات من تجنبها بحجة أنها تسبب تلفًا للمعدة.. لم يكن يهددهم تهديدًا مباشرًا؛ بل كان يحذّر العملاء بالتعاون مع أصدقائه من وزارة الصحة البحرية..

شمشون من فصيلة الطحالب البحرية لا مستقر لها حتى يطيب فيه مقامها.. من أجل ذلك تظل هائمةً هنا وهناك، لا تعرف أين تلقي عصا تيارها، ولا أين ينتهي المسير بها، فالتيارات المائية ترفعها تارةً، وتخفضها تارة أخرى.. ولذلك سمّيت بالهوائم، ولا أصل ثابت تعتمد عليه، فلا جذور تتغلغل في التربة تحفظ لها توازنها ومكانها، بل يحيط بها الماء من كل اتجاه، تحركها أمواجه كيف شاءت، ولكنها –مع ذلك– تظلّ عالقةً فيه، ولذلك سميت بالعوالق..

ومن هنا كانت حياة شمشون عالقة؛ أنه من العوالق البحرية، فلم يستطع الاندماج مع أحد، فلا هو من مملكة السلاطع الأقوى،

ولا هو من مملكة الإسفنج، ولا حتى من القواقع؛ بل إن قدرة العوالق على السباحة محدودة للغاية، ولا تستطيع السباحة بقوةٍ كافيةٍ تمنعها من الانجراف مع التيارات المائية..

من أجل ذلك سمُي شمشون بالعالق؛ لأنه عالق، ويريد أن يعلق العالم من أجله..

شمشون يعود إلى منزله الكائن في أسطح المحيطات والبحيرات قائلًا:

– لا أرغب في الحديث مع أحدٍ يا كارن.. أنا فاشل.. كارن يا زوجتي العزيزة؛ أنا عالق، لقد فشلت في كلّ شيء.. لم يجعلني سلطع أصلح لشيء.. هل أنا متعدد المواهب؟ أم متعدد المفاشل؟! الجميع يراني ذكيًّا إلا أنا؛ أرى نفسي غبيًا للغاية، لا يمكنني العمل بشكلٍ فرديٍّ، ولا حتى بشكلٍ جماعيّ..

من أنا؟ لستُ أدري، ولعلي لن أدري..

الجميع يخاف مني.. هل أنا شرير؟! هل أنا طيب؟ ماذا عن سلطع؟ لماذا يحاربني؟ لماذا لا يترك لي مجالًا للعمل؟!

أحتاج إلى عزلةٍ طويلةٍ، عزلةٍ تامّة، إلى هدوءٍ تامٍّ دون صخبٍ أو ضجيج؛ لأستجمعَ عافيتي.. لا شيء يسعدني كما هي العزلة، إنها أحلى الأقدار، إنها السعادة، إنها صديقي الوحيد..

لقد حاولت كثيرًا أن أكون لطيفًا وقويًا وصبورًا ومثاليًا وطيبًا، لكن لا جدوى، ليس لي فائدة في هذه الحياة، أنا من العوالق البحرية التي لا تفيد.. ليتني حتى حمار البحر؛ أتنبا بالزلازل قبل وقوعها، أو حتى كلب البحر أشتمّ الروائح من مسافات.. ليتني حتى دجاجة خارج المحيطات؛ أبيض ويأكل الآخرون بيضي..

حاولتُ كثيرًا أن أكون ناجحًا، وفشلتُ بالرغم من تعبي وإرهاقي وضعفي وتظاهري بالقوة..

هل أنا الكائن الوحيد الذي يشعر في قرارةِ ذاته أن الأسماك البحرية جميعها تنظر إليه نظرة ازدراء وسخرية وتهكّم وضعف؟! الصدف، والمرجان، واللؤلؤ، والكتان، والسرطان، حتى الضفادع؛ تنظر إليّ نظرة سخرية، نظرة كراهية، نظرة استحقار.. هل أنا بشع إلى هذا الحد؟!

هناك من هو أبشع مني، ومع ذلك لا يشعر بما أشعر به!

شمشون بصوت عالٍ قائلًا:

– كارن يا زوجتي الغالية.. أفتقدكِ كثيرًا، في غيابكِ وفي حضورك أفتقدكِ.. أفتقد كتاباتك الراجحة، وحروفك المليئة بالدفء والجمال والموسيقى التي تضعينها أثناء حديثك، ورموشك الجميلة التي يهفو إليها القلب ليكتب أبياتًا من الشعر والغزل.. إنه أجمل الأشياء وأحلى الأقدار؛ حتى وإن كان سرابًا وخيالًا..

يا شمشون!

أنت لست بشعًا، ولكن الجميع لا يمتلكون ذوقًا عاليًا ليحبّوك..

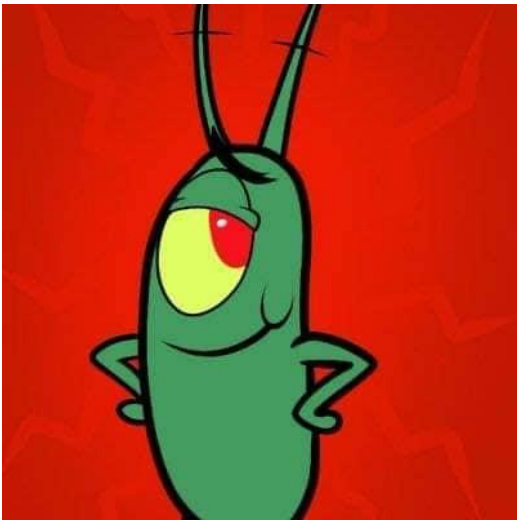

شمشون يعيش في (قاع الهامور)، ويعتبر العدو اللدود لمستر سلطع..

هو من العوالق البحرية.. عوالق تعيش في المحيطات والبحار والمياه العذبة، وعادةً ما تكون الأفراد منها صغيرة جدًا ولا تُرى بالعين المجرّدة، إلا أن بعضها كبيرة نوعًا ما مثل قنديل البحر..

طوال سنواتٍ يحاول شمشون مرارًا وتكرارًا دون مللٍ أو كللٍ أن يسرق وصفة سلطع برجر؛ سواء أكان يريد سرقتها من أجل فضح

مكوناتها السرية المشبوهة، أو لتقليدها، فالوضع لا يبشر بالخير لك يا شمشون، ولا يبدو أنك في الطريق الصواب..

من أجل سرقة وصفة سلطع برجر؛ وضع الخطط.. يستمر شمشون العبقري في اختراع طرق وأساليب مبتكرة للوصول للوصفة السرية أصعب من الوصفة ذاتها، ومع ذلك لم يستطع سرقتها! بل وسخّر إمكانيته كلّها لسرقة الوصفة..

لكن لم يحاول شمشون أن يركز أكثر في عمله، لم يحاول إغراء سبونج بوب للعمل في مطعمه، أو تسخير وقته في تحسين جودة مأكولاته مثلما استعمل وقته في إيقاع غيره..

ماذا لو استجلب شمشون خبير تسويقٍ محنّكٍ مثل سبونج من أجل متجره؟! فلدى شمشون التكنولوجيا التي تزوج بها حرفيًا، ومع ذلك يفشل دومًا.. هل يعتبر سلطع برجر المحبّ للمال محظوظًا بوصفته؟! أم محظوظ بإخلاص الفذ سبونج الذي يحب عمل البرجر اللذيذ دون تذمّرٍ أو طلبات؟! أم هو محظوظ لأنه من فصيلة السلاطع ويتملك قوّةً وعصبية؟!

إياك -يا شمشون- أن تكون من المحتالين!

في عالمنا يوجد الكثيرون ممن يمتلكون ملكة الإقناع والتسويق للذات، ممن يصرون على جعل أنفسهم عوالق طفيلية تحاول أن تتسلق سريعًا لتمتص قوتها من دماء الآخرين؛ بل يريدون أن يكونوا

جزءًا من نظام توزيع غير عادل يقتاتون به الاحتيال.. إياك أن تكون منهم يا شمشون!

يتساءل شمشون قائلًا:

- هل يجب على الناس أن يكونوا في حالة استعدادٍ دائمٍ لصدّ المحتالين؟! أم أن وجودهم في الحياة هو إفراز طبيعي لمنظومة فساد أكبر تتأثر وتؤثر في عالمنا في قاع الهامور غير السويّ أصلًا؟! هل يبدأ الفساد رأسيًا من سلطع وينتشر أفقيًا حتى يصل إليّ؟!

ثم يجيب قائلًا:

- لستُ أعلم، ولا أدري.. أنا حقًا لا أدري.. أنا حقًا عالق..

شفيق حبار يقرأ كتاب (طوق الحمامة)، ويجد ما يصف مشاعره تمامًا.. فور تعرّفه على صديقة قبعة..

إنّ الحُب أوله هزل، وآخره جدّ، ولا تُدرك حقيقته إلّا بالمعاناة، وهو ليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظورٍ في الشريعة.. وإن الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة، فالنفوس المتماثلة تتصل وتتواءم.. أما النفوس المتنافرة؛ فتتباعد.. فمنها محبّة القرابة، ومحبّة الألفة، ومحبّة المصاحبة، ومحبّة البرّ، ومحبّة الطمع في جاه المحبوب، ومحبّة المُتحابين لسرٍّ يجتمعان عليه لستره، ومحبّة بلوغ اللّذة، ومحبّة العشق، وأفضلها محبّة المُتحابين في الله..

وكلّ ضروب المحبة تنقضي بانقضاء عللها، إلّا محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس، فهي لا فناء لها بالموت.. والإنسان بطبعه يقع في حبّ الصورة الحسنة للوهلة الأولى، وإذا لم يتجاوز

هذا الحُبّ الصورة الحسنة سمّي بالشهوة، وشبّه الحب بالداء، والدواء منه على قدر المعاملة لا يودّ المصاب به الشفاء

علامات الحب:

هناك علامات تظهر قبل استعار الحُبّ، حيث يمكن لأيّ إنسان فَطِن ملاحظتها، ومنها: إدمان النظر إلى المَحبوب وملاحقته أينما حلّ، والانذهال عند رؤيته فجأة، واضطراب المحبّ لدى ورود ذكر المحبوب، والإقبال بالحديث عبر الاستماع إليه، وتصديقه حتى ولو كذب، ودعم أقواله حتى ولو جار على الآخرين، ومحاولة لمسه، وعدم الرغبة في مُغادرة المكان المتواجد فيه..

شفيق حبار ينفتح في الحديث أكثر، ويتذكر ماضيه:

كانت على حافة الانتحار.. كانت يائسة جدًا لدرجة أنها تفضّل الموت على الحياة.. لا أعلم ما الذي يدفعها إلى ذلك! إنها تبدو جميلةً، ومن عائلةٍ غنية، وهذا يظهر من ملابسها الفاخرة..

اقتربتُ قليلًا منها، وكنتُ أنظر إليها خلسةً بحيث لا تراني.. كانت تفكر في الانتحار من على الطابق العاشر.. أما أنا؛ فقد كنُت أعمل هناك، حيثُ أمتلك غرفةً مظلمةً معتمةً خلف الأبواب، بعيدًا عن عيون الناس.. كنتُ أعمل جنديًا في الطابق العاشر فوق السطوح لحراسةِ إحدى السفن الباذخة من السطو والسرقة..

أمعنتُ في النظر إليها، واقتربتُ أكثر وأكثر، وكنت أستمع إلى حديثها وتمتماتها مع نفسها وهي تقول: " وداعًا أيها العالم.. لن تجدوني بعد اليوم هنا"..

كانت تريد الانتحار كفكرة، لكن جسدها لم يطاوع مخيّلتها وخاف الجسد من التمزّق، وخافت النفس من الفناء والعدم..

إنّ نفسها لم تطاوعها على ذلك، وكلّما اقتربت من الانتحار عادت إلى وضعها الطبيعي، ثم استدارت إلى الخلف..

كنتُ أنظر إليها خلسةً.. كانت فائقة الجمال؛ حتى أنني لم أستطع أن أزيح عيوني من عليها..

سألت: "مَن أنت؟!" وهي خائفة ترتجف.. لم أكن أعلم حينها أن هذا المكان المظلم خلف الجدران المعتمة سيجذب لي يومًا هذا الجمال! لم يكن يجذب لي سوى المتسكعين والمتنطعين والخمّارين في الشوارع.. كنتُ أرى الأيام واحدةً كئيبةً لا تُطاق، والدهر كالدهر؛ لا جديد فيه.. حدّقتُ في عينيها، وفضّلت الصمت لدقائق قبل أن أبدأ في الحديث:

- أنا أعملُ هنا.. من أنتِ؟ ولماذا تريدين الانتحار؟!

تلعثمت قليلًا، فأجابت:

- أنا لا أفكّر بذلك..

شفيق حبار:

- ما اسمكِ يا فتاة؟

تجيب قائلة:

- قبعة السلطان، وأحيانًا زينوبة..

قبعة السلطان، وذلك يعود إلى شكلها الذي يشبه القبعة، ونجد في هذه الصدفة الجميلة كائنًا في آخر لفةٍ من لفّات الصدفة، وهذا الشقّ طبيعي، وعمله هو إمرار الماء من خلاله ليغمر مكيال السوائل من أجل الحصول على الأوكسجين.. ولقبعة السلطان بوابة صدفية تسدّ فوهة الصدفة عندما ينسحب الحيوان إلى داخل الصدفة..

ثمّ استدارت قبعة، وغادرت، ولم تعد للأبد..

كان شفيق يخُفي عاطفته، حبه، شغفه، وفضوله كلّما نظر إليها واقترب منها؛ حرصًا على كبريائه وغروره، وخوفًا على جرح مشاعره.. بينما يودّ أن يخبرها بأنها أجمل وأرق كائن في الكون، وأنها ازدادت جمالًا عن السابق، وأن الظل الذي وضعته على عينيها لأول مرةٍ زادها جمالًا فوق جمالها الطبيعي، وأنها جميلة الروح، لطيفة، وذات كبرياء، بسيطة، وعميقة معًا، خفيفة على القلب، تجيد الحضور، هادئة في الغياب، رقيقة المشاعر، وراجحة العقل، وأن ضحكتها وابتسامتها أجمل ما في الكون، وأنها ذواقة وأنيقة في ارتداء ملابسها، وأنها بنظره أجمل فتاة في العالم، وستظل كذلك؛ حتى وإن اطمئن لحبّها فهو لن يتغير نحوها، ولن ينتهي حبه، شغفه، فضوله، ودوافعه للاستكشاف؛ لأنه يحبها أولًا، ولن يتركها يومًا دون حبٍّ واهتمام، ولأنه يعلم بأنها ذكية ولديها قدرة فائقة على التخطيط والتجديد والابتكار، وأنّ الحب لا يصل بينهما عبر الصمت فقط، وإنما عبر الأرواح وتخاطرها دون الحاجة للكلام، وأنه كلّ يومٍ يحرز تقدمًا متسارعًا للوصول إليها، وقد أصبح قاب قوسين أو أدنى، واقترب كثيرًا من الوصول، وهو في ذلك يبذل مجهودًا كبيرًا لا يُستهان بهِ من أجلها، ومن أجله، ومن أجل الحاضر والمستقبل..

كانت اللغة تسبب سوء الفهم بينهما، وتضلل المعاني والمشاعر والعواطف؛ لأن شفيق حينما يتحدث إلى حبيبته يتعثر ويتلعثم في حديثه، مما يزيد من سوء الفهم بينهما والتباعد..

إن أحلام صاحبنا (شفيق) التي رسمها لسنواتٍ قد تجسّدت بقبعةٍ أو زينوبةٍ كما أحبّ أن يناديها، فقد حلم أن يكونا معًا، وأن يستكشفا العالم سويًا، وأن يكون لهما أطفال، وأن تكون هي أمّ لأطفاله؛ فهو لا يستطيع أن يتصور أن يكون له أطفال وليست هي من تقرأ لهم الكتب والقصص، وأن أحلامها شبيهة بأحلامه، وأن أفكارها قريبة إلى أفكاره، وروحها من روحه..

تحطّمت تلك الأحلام في لحظة، في غضةٍ من الزمن حينما غادرت.. تألّم صاحبنا، وتحوّلت أحلامه وآماله إلى كوابيس، تألّم شفيق ألمًا شديدًا وهو المعتاد على الألم، وأصابه الحزن وهو المعتاد على الحزن..

إنه كائنٌ حيٌّ رقيق ذو قلبٍ ومشاعر، يتألم ويحزن، وإن حاول إخفاء ألمه وتظاهر بالقوة حفاظًا على كبريائه أمام كل متشفٍّ وناقم، إلّا أنه قد تألّم من الصدمات، ومن القسوة والجفاء، ومن معاملتها، فقد اعتادت على القسوة كونها صدفة مرجانية تعيش تارةً في البحار وتارةً على الرمال..

إنها تريده نصف إرادة، تريده ولا تريده.. تريده أن يكون لها متى ما شاءت؛ لا أن تكون هي له متى ما شاء.. تخشى من حرّيتها أن

يقيدها، وتستعمل شفيق لإحياء عواطفها؛ ولا تشاركه الحبّ، ولا تريد أن يستفيد شيئًا من الحبّ؛ فهذا أكثر ما يغيظها، ولا تريد أن تشاركه الحياة..

يقول شفيق:

– كانت تستنزف عواطفي دون أن تعطيني الأمان والثقة كما اعتدت أن أعطيها..

لشفيق حبّار صفات ثابتة لا تتغير ولا تتبدل على الرغم من هواياته المتعددة وتقلبات مزاجه في الفصول الأربعة..

ثلاثة أشياء تبكي شفيق:

1. عبارة قاسية جارحة.
2. فقدان من يحبّ.
3. مرور ذكريات سعيدة وتمّ فقدانها.

ثلاثة أشياء يحتاجها شفيق:

1. ضمّة نابعة من القلب.
2. كلام جميل يرفع معنوياته.
3. وقت راحة واستجمام.

ثلاثة أشياء تقتل شفيق:

1. تفضيل شخص آخر عليه.
2. انعدام مستقبله.
3. رحيل أحبائه عنه.

إنّ لقاء صاحبنا شفيق بصديقته كان قريبًا، إنه يسكن في البحر بينما هي تسكن في الرمل، واتفقا على العيش في منطقةِ ما بين البحر والرمل، ثم حال القدر بينهما في اللحظات الأخيرة..

إن العناية الإلهية تدخلت لإنقاذ قلب صاحبنا الأكثر نقاوةً (شفيق حبار) وإن كان يحمل خبثًا ومكرًا، ولكنه يمكر من أجلها، إلا أنه كان أكثر حبًّا منها، ولو ذهب للقائها لتألّم أكثر وفقد وطنه وهويته وعقله وعلمه دون أن يكون له وطن ودون أن يكون له سند، وفقد الأمان الذي اعتاد عليه طيلة حياته، وفقد أهله وجيرانه..

في لحظة تفكيرٍ وصمتٍ قرّر شفيق حبار مغادرة قاع الهامور إلى أرض أخرى لا يعلم طريقها دون أن يكون له أهلٌ في الغربة ولا رفيق في الطرقات البعيدة الموحشة.. إنه يحبها، وما زالت في قلبه وذاكرته ووجدانه، وهو يعلم أن من المستحيل أن يتحول حبّه للكراهية..

طبيعتها ومعيشتها الرملية وإنتانيتها يمنعانها من الدفء والعطاء والحنان.. ومن ثمّ أخبرته أنها لن تعطي له أو لغيره، ولن تعطي أبدًا طيلة حياتها..

إنّ فراقها أحزنه، وما أحزنه أيضا أنه بلحظةِ ألمٍ وحزنٍ مزّق جميع ذكرياتها وصورها التي اعتاد تجميعها لسنواتٍ وأصبحت كالسراب..

شفيق يضيف قائلًا:

– لم نكتمل، ولم تجعلني بدونك أكتمل.. لِمَ حبّك كالعوالقِ في البحر؟ لا هو أسماك، ولا هو سلاطع.. إنها مجرد عوالق تطفو على السطح.. لِمَ تأتينَ إليّ؟ ولم تتركينني أنساكِ؟! أنتِ لا تستحقين الحبّ ولا النسيان، أنتِ الحُبّ كله، والوهم معًا..

لم تكوني سوى نصف؛ نصف لا يرغب بالكمال، نصف حُب، نصف أمان، نصف طريق، نصف مشوار..

ليتكِ اكتملتِ.. وفيكِ من الكمال ما يكفي ليملأ الكون بأسره..

يا شفيق! من عاش ومات ولم يعرف نفسه لم يعرف باطنه، عاش مغتربًا، محجوبًا عن نفسه، غير قريبٍ منها، لا يعرفها، جاهلًا بها، ليس إنسانًا.. لم يعِش إنسانًا كاملًا.. أنت عشت جسدًا فقط.. أنت جسد وروح.. ومن المستحيل أن يكون المرء واثقًا بنفسه وهو يجهلها تمامًا..

إن الثقة بالنفس تعني معرفة النفس، وكشف أغوارها وأبعادها وخفاياها..

إن فشلت في الحبّ أو الصداقة أو حتى في الاحترام؛ لكنك لم تفشل في مساعدة الآخرين على استكشاف أنفسهم، فربما يكون الألم الحادث المتسبب به والحاصل عليه هو ألم الولادة، هو ألم الخروج من القالب العادي إلى سماءٍ واسعةٍ تطير فيها متحررًا من أيّ قيودٍ دون قيود حب أو غيره..

إنّ كلّ فردٍ سيكتشف في نفسه أعماقًا وعيوبًا ونواقص وضعفًا على يد الآخرين..

شفيق وسبونج وبسيط يغادرون قاع الهامور إلى الأبد..

شفيق:

– أمتلك فكرةً عبقريةً للغاية! سأصنع طائرةً، وأطير عليها، وأثبت لهؤلاء الحمقى أني لستُ غبيًّا ولا كسولًا.. سأبدأ من الغد العمل عليها، وستكون أنت يا سبونج وأنت يا بسيط بجانبي، وسنكون من اليوم أصدقاء إلى الأبد..

سبونج بدهشةٍ وتعجّب:

– رائع يا شفيق! سنكون حقًّا أصدقاء؟! كم يسعدني ذلك!

بسيط:

- أنا سعيد للغاية لأننا سنكون أصدقاء..

شفيق يبدو عليه الجدّ في الحديث قائلًا:

- كيف لجسمٍ عملاقٍ وضخمٍ كهذا أن يطير ويحلّق في الجو؟! أن يطير ويحلق في الجوّ لساعاتٍ دون أن يقع في الأرضِ؟!

ويشير بأصبعه إلى الطائرة.. ثم يضيف قائلًا:

- كيف تحتفظ الصقور بتوازنها في الهواء؟! إنّ حركة الطيور مثل حركة الطائرات، وإن معرفتنا لحركة الطيور تسهّل علينا الطيران.. إنها أثقل بكثير من الهواء الذي يحملها، فكيف تحتفظ بتوازنها دون أن تسقط على الأرض؟!

بسيط يحملق في وجه شفيق قائلًا:

– لا ينبغي علينا صنع طائرة.. لماذا نرهق أنفسنا يا شفيق؟! لديّ فكرة أخرى: سنذهب غدًا إلى المطار وأخبرك عنها..

في صباح اليوم التالي:

ذهب بسيط وشفيق وسبونج إلى المطار..

شفيق يحدّق في الطائرات من على بعد أمتارٍ وهي تقلع وتطير، ويتساءل:

– ولكن كيف نصل إلى تلك المرحلة يا بسيط؟ هل نحن فعلًا قادرون على الطيران؟! كيف تتم صناعة الطائرات لكي تطير في الهواء؟ هل تتم صناعة الطائرات بالجملة مثل الماكينات الصغيرة؟ أم تتم صناعة كلّ طائرةٍ على حدة مثل المنتجات اليدوية والأنتيكات؟! أهي مزيج بين الفكرتين؟! كيف تعمل الطائرة؟ أهي كالطائرات الورقية والبلاستيكية التي كنُت أصنعها في مقرمشات سلطع؟! هل فقط ينقصها طاقة لترتفع في الهواء بقوة دفع المحرك؟!

سبونج يشعر بصعوبة الأمر حقًا.. يجيب قائلًا:

– لم نعد نستطيع العودة إلى قاع الهامور، فقد أصبحنا مطرودين من أعمالنا..

بسيط:

– يا رفاق! ليس المهم صناعة طائرة، المهم هو الهروب والطيران.. حتى أنا؛ طفح بي الكيل من الفقر والحرمان، بيتي هو الأصغر في قاع الهامور، والجميع يسخر منّي، تارةً ينادونني بالكسول، وتارةً بالفاشل، وتارةً بالغبيّ، ويقذفني الأطفال بالحجارة عند ذهابي وعودتي.. أنت محظوظ يا سبونج؛ فأنت لم تشعر يومًا بتلك المشاعر السيئة..

–

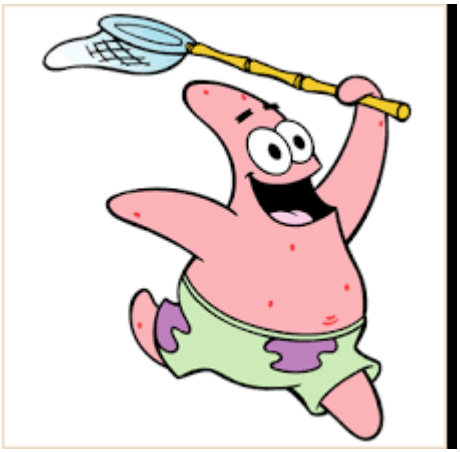

فكّر بسيط في الطيران، في الطيران فقط؛ فكّر كما لو كان حقًا مجنونًا أو غبيًّا..

بسيط يضيف قائلًا:

– الأمر ليس صعبًا كما يخيّل إليكم.. لقد طار ابن فرناس وسقط، ونال شرف المحاولة..

يتساءل بسيط:

– ماذا يوجد في المطار؟

ثم بصوتٍ مرتفعٍ قائلًا:

– يوجد عناصر أمن، بوابات متينة، حراسة مشددة، كاميرات مراقبة، مسؤول تفتيش..

شفيق:

– ما الذي ترمي إليه يا بسيط؟! ثم ماذا؟ هل تفكر بالهروب؟!

بسيط:

– أفكر بالهروب من المطار، والتعلّق على أجنحة الطائرة..

لم يكن شفيق يخشى من شيءٍ سوى من دوران المحرك الخارجي أثناء الإقلاع، فإن ضغط الهواء قد يشفطه ويقطعه إلى أشلاء.

سبونج:

– فكرة رائعة يا بسيط! سنستمتع كثيرًا.. ماذا عن جزء الأمتعة الخاص بالطائرة؟! إنه المكان الآمن للهروب، أليس كذلك؟

شفيق:

– أو الجزء الخاص بقطع الغيار والصيانة.. يمكنني الاختباء فيه..

بسيط:

– أو التسرب إلى حفرة العجلات في الطائرة.. إنه مكان رائع، لكنه حار.. إنّ الأمر لا يختلف كثيرًا عن خانات السيارات، أو التعلّق في جناح الطائرة، وهو آخر الاحتمالات والأشدّ خطرًا..

شفيق:

– لا شكّ أنّ الطائرة ستقودنا إلى مدينةٍ أخرى جميلة..

حراسات مشدّدة في المطار.. عناصر الأمن منتشرة.. كاميرات مراقبة.. مسافرون يودّعون أهاليهم وأصدقائهم..

يتظاهر سبونج وشفيق وبسيط كما لو كانا مسافرين.. يتجاوز بسيط الحراسات المشددة، ولا يظهر على ملامحهم الخوف أو الوتر؛ حتى يصل إلى مسؤول التفتيش.. مسؤول التفتيش:

- إلى أين أنتم مسافرون؟!

بسيط:

- إلى الصين.

مسؤول التفتيش:

- لكنك لا تبدو صينيًّا!

بسيط في تهكّمٍ وغضب:

- كيف لا أبدو صينيًّا؟! هل أفطس أنفي مثلًا حتى تتأكد أنه صيني؟! ثم إنه ليس بالضرورة أنّ كلّ من يسافر الصين يكون صينيًا..

مسؤول الجوازات يبتسم ابتسامةً خبيثةً كما لو أنّه شكّ في مصداقية سفره:

- أين جوازك؟

بسيط يتحسس محفظته ويتظاهر بفقدان الجواز، ومن ثم يطلب من مسؤول التفتيش السماح له بالمغادرة للبحث عنه..

مسؤول التفتيش لا يملك سوى الموافقة على طلبه..

بسيط وشفيق وسبونج يعودون مجددًا لقاع الهامور لإعادة التموضع..

سبونج:

- ماذا لو استطعنا الهروب من مسؤول التفتيش؟! أليست الصعوبة الأكبر في الطيران؟! هل من طرقٍ أخرى غير التعلّق في جناح الطائرة؟ ماذا لو سقطتُ وفقدتُ روحي وتهشّم جسدي؟! هل سننال شرف المحاولة كما نالها ابن فرناس؟ أم أننا سنكون مجرّد مجانين؟!

نحن لا نمتلك الإمكانيات لصناعة الطائرة، لا نمتلك شيئًا سوى الجنون والمغامرة.. ماذا لو لم أجد مكانًا في جزء الأمتعة الخاصة بالطائرة؟ ماذا لو كانت حفرة العجلات حارةً وتختلف عن خانات السيارات؟!

لم يكن شفيق يخشى من شيءٍ سوى دوران المحرّك الخارجي أثناء الإقلاع، فضغط الهواء قد يشفطه ويقطعه إلى أشلاء من قبل أن يصعد على متن الطائرة.

في صباح يومٍ آخر..

يتجاوز بسيط الحراسات المشددة، يتجاوز الجميع حتى يصل إلى مسؤول التفتيش مرةً أخرى.. مسؤول التفتيش يحدّق في وجه بسيط كما لو أنه تذكّره..

يطأطئ بسيط رأسه، يعضّ شفتيه، ويحاول الهروب.. مسؤول التفتيش يصرخ بالميكرفونات، وينادي الحراسات المشددة وقوات الأمن:

– اهرعوا إلى هنا! وصل.. وصل.. المجنون وصل.. اقبضوا عليه.. أمسكوه.. كبّلوه بالقيود..

يصرخ بسيط بصوتٍ حزينٍ مليءٍ بالخسارة والألم:

– لستُ مجنونًا.. لست مجنونًا.. هم جننوني! تارةً ينادونني بالأحمق، وتارةً بالكسول، وتارةً بالفاشل..

المسافرون يهربون ويغادرون أماكنهم بعد أن طلب مسؤول التفتيش القبض على بسيط..

جميع المسافرين هربوا.. الساحة خالية تمامًا.. الحرّاس يصرخون بمكبّرات الصوت:

– كلٌّ يعود إلى مكانه، كلٌّ يعود.. لقد قُبِضَ عليه.. لقد كان يمتلك سلاحًا وارد التفجير، والحمد لله لا أضرار.. لا أضرار..

بسيط يحدّق يمنيًا تارةً، وشمالًا تارةً أُخرى، ولا يصدق ما حدث! لقد قُبِضَ على مجنونٍ آخر..

– لقد ظننتُ أنّي المطلوب.. الحمد لله.. الحمد لله..

المكان خالٍ تمامًا من الأفراد والحرّاس.. يهرب بسيط ويتجاوز السلاسل والحراسات المشددة ومسؤول التفتيش، بعد تسلله قافزًا من على سياج المطار.. يهرب من بعده سبونج، ويهرب شفيق.. يقترب شفيق مع أصدقائه سبونج وبسيط من إحدى الطائرات الضخمة من طراز بيونغ 767 لها عجلات ضخمة..

سبونج:

– إنها المكان الآمَن للطيران.

بسيط يفكّر في جزء الأمتعة الخاصّ بالطائرة، فيجده مغلقًا..

سبونج:

– الجزء الخاص بقطع الغيار والصيانة أيضًا مغلق! لا يوجد سوى العودة إلى حفرة العجلات.. إنه مكان رائع!

يصعد سبونج، وكذلك شفيق، ومن ثمّ بسيط..

- يوجد القليل من الأكسجين هنا..

شفيق:

- إنه فعلًا مكانٌ لا يختلف كثيرًا عن خانة السيارات..

سبونج:

- هل تعلم إلى أين تتجه الطائرة يا بسيط؟!

بسيط:

- لا..

- وأنت يا شفيق؟!

- لا أعلم..

سبونج قائلًا:

- أنتم فعلًا مجانين..

شفيق:

- لا يهم.. يكفي أنني برفقةِ أصدقائي.. ليس الآخرين الجحيم، بل الوحدة هي الجحيم..

NOURHAN R. KHATTAB
BROWN
POSTER COLOR
WHITE
NOURHAN R. KHATTAB
NOURHAN R. KHATTAB